

ملف ١

في الذكرى الثامنة لرحيله: إدوارد سعيد وميراث الانعتاق والتمثيل

مرّت في أيلول (سبتمبر) الماضي الذكرى الثامنة لرحيل إدوارد سعيد. وفي هذه المناسبة ننشر فصلين من كتاب «إدوارد سعيد: ميراث الانعتاق والتمثيل» الصادر بالإنكليزية عن مطبعة جامعة كاليفورنيا في الولايات المتحدة (آب/أغسطس ٢٠١٠). قام عادل اسكندر وحاكم رستم بتحرير الكتاب، وقد تفضلا مشكورين بالسماح بنشر هذين الفصلين في الكرمل الجديد، كما كتبنا المقدمة التالية لهذا الملف:

في سَنَةٍ يبدو فيها العالم العربي يغلي بسخطٍ وحنقٍ عامّين في كل بقعةٍ من بقاعه، فإنّ القليل من المعلقين أو الكتّاب أو المفكرين أو الباحثين أو أعلام السياسة يملك القدرة على تفكيك العلاقة المعقّدة، التي تجمع بين العوامل التي تساعدنا على التحقق من هذه الحركات وفهمها وسبر غورها. بل إن عدداً أقل من هؤلاء يستطيع النظر في ثقل البؤس الذي تولد في مرحلة ما بعد الكولونيالية، والإمبريالية الجديدة، والاقتصاد السياسي المرتبط بالتبعية، والقومية المعيبة، وقصر نظر السلطة الاستبدادية والدوغما التي تجرّد الإنسان من إنسانيته في تحليل ما بات يُعرف بـ«الربيع العربي».

إننا نشعر، وفي أوقاتٍ مثل هذه، بفداحة فقدان الراحل إدوارد سعيد، أحد أبرز

المفكرين الأفاضل، وغيابه عنا. ففي الحقيقة، تُطلِّ علينا ذاكرة سعيد وترشدنا في جانب كبير من فهمنا للشرق الأوسط المعاصر. فقد أثرى سعيد، من ميدان النقد الأدبي الذي خاض غماره إلى دفاعه ومناقشته عن القضية الفلسطينية، الخطاب العام بمهارة فائقة قلَّ نظيرها عن طريق خلخلة الوضع القائم ونفضه.

بعد ثماني سنوات على وفاته، لم تبقَ كتابات سعيد لصيقة بأيِّ مراقبٍ يعاين الأحداث التي تمرَّ بها المنطقة فحسب، بل إنها أثبتت أنها كانت، بالأحرى، نبوءات انطوت على رؤية المسار الراهن الذي يسير فيه العالم العربي. فقد أفصح سعيد عن تواطؤ واضح بين المصالح القومية للولايات المتحدة ونشر جنودها في المنطقة. كما وجَّه انتقاداً برع في إيجازه ودقته لاتفاقيات أوصلو وما تمخَّض عنها من سلب الفلسطينيين. ونحن ما نزال نشهد آثار هذه الاتفاقيات وتداعياتها حتى يومنا هذا. وحتى في محاضراته الأخيرة التي ألقاها أمام لجنة مناهضة التمييز العربية الأمريكية في العام ٢٠٠٣، أبدى سعيد حسرته وأسفه على سقوط العالم العربي وانحداره على مدى عقودٍ من الدكتاتوريات القومية التي يمثل قادتها القاسم المشترك الأدنى مع شعوبهم.

أصبحنا نشعر أن الضرورة تقتضي منا، عند هذا المفترق التاريخي، أن نستكشف الأثر الذي أفرزته مسيرة إدوارد سعيد الخصبه والمؤثرة على الحياة العامة المعاصرة، وذلك بصفته باحثاً ومفكراً ومعلِّقاً سياسياً وناشطاً وموسيقياً وناقداً ثقافياً ومُنظراً إنسانياً. وفي سعينا نحو تشييد المورد الذي يفوق غيره في شموليته وتنوعه حول حياة إدوارد سعيد وأعماله، فقد دعونا ٣١ مساهماً من داخل الأكاديمية وخارجها لإعمال فكرهم في ميراث إدوار سعيد والتأمل فيه. وهؤلاء أعلام – وهم نخبة بارزة من الباحثين والنقاد والكتاب والناشطين – طلبنا إليهم بسط ما تجود به القريحة والبصيرة حول الأفكار المتنوعة التي طرحها سعيد. وجاءت ثمرة هذا العمل في كتابٍ نُشر مؤخراً تحت عنوان «إدوار سعيد: ميراث الانعتاق والتمثيل» وتتضمَّن فصول هذا الكتاب مقابلات ملهمة مع نعوم تشومسكي حول مواطن اتفاقه واختلافه مع سعيد في شأن فلسطين-إسرائيل والصهيونية، ومع المايسترو دانيال بارينباوم

حول أوركسترا الديوان الغربي الشرقي وتعليم الموسيقى من أجل جسر الهوة في الشرخ القائم، ومع غاياتري سبيفاك حول تأثير سعيد في الأحداث التي تلت فترة ١١ أيلول/سبتمبر. وتتناول المساهمات البارزة الأخرى التأثير الذي مارسه سعيد على مواضيع من قبيل النظرية ما بعد الكولونيالية والأدب والموسيقى والفلسفة والدراسات الثقافية. وقد كتب هذه المساهمات جوزيف مسعد، وغادة كرمي، وإيلان بابي، وأردي إمسيس، وإيلا شوحاط، وصبري حافظ، وويليام ج. توماس ميتشل، وجاكلين روز، ولورا نادر وتيموثي برينان.

تمثّل حصيلة هذا العمل تحليلاً دقيقاً لتأملات سعيد ووسيلة للوقوف على الآثار التي أفرزتها أعماله ومحاولة طموحة لاستشراف كلّ جانب من جوانب حياة رجل موسوعي الثقافة، ومنظرٍ إنسانيٍّ صادقٍ منفيٍّ عن وطنه ومفكرٍ بارعٍ لا يضارعه أحدٌ في جَلده وثباته على مبادئه الأخلاقية في هذا العصر الحديث.

ويبيّن هذا الكتاب أن إدوارد سعيد كان يستنير بفلسطين ويسترشد بها في كتاباته (في حقول السياسة والتاريخ إلى الموسيقى والأدب)، وأن النضال الذي خاضه في سبيل تحقيق العدالة لفلسطين أمسى متأثراً باهتماماته الأكاديمية والجمالية. إننا نؤمن بأن الغاية النهائية لهذا الكتاب تسعى إلى التعريف ما بتنا نسّميه الآن بـ«منهجية سعيد» في وقت أكثر ما نكون فيه بحاجة إلى صوته الرزين الذي ينم عن الوقار والاعتدال.

عادل اسكندر وحاكم رستم